# البحث الخامس

## المصبتا

المصبتا (الصباغة) ركن أساسي من أركان الدين الصابئي المندائي ، وهي فرض واجب على كل مندائي مؤمن، ويستحسن إجراءها والطفل عمره ثلاثون يومًا ليكون صابئيًا مندائيًا... والمصبتا تعني الارتباط الروحي الوثيق بين العالم المادي الذي نعيش فيه والعالم الروحي (عالم الأنوار) الذي سوف نعيش فيه بعد أن تغادر النفوس هذا العالم لأن (كل ما يصنع بالأيدي يفسد وكل حي يموت) في هذا العالم المادي... وأعمال الخير هي التي تزكينا ، والصباغة تعني حياة جديدة تمنح للإنسان عليه أن يحيا بصدق ونزاهة وإيمان ، لتخفف عنه ذنوبه يوم الحساب في ميزان أباثر ، ولتسهل عروج النشماثا (النفس) إلى عالم الحق (مشوني كشطة) ليعود إلى آباءه الأوائل إلى المثيل (الدموثة) الذي أخذت منه النشماثا يوم تصور في رحم أمه الطاهر.

ويذكر لنا كتاب الكنز العظيم (الكنزا ربا):

(اصبغوا نفوسكم بالصبغة الحية التي أنزلها عليكم ربكم من أكوان النور ، والتي اصطبغ بها كل الكاملين المؤمنين* من وسم بوسم الحي ، وذكر اسم ملك النور عليه ، ثم ثبت وتمسّك بصبغته وعمل صالحًا ، فلن يؤخّره يوم الحساب مؤخر).

تتم الصباغة في اليردنا ، أي في المياه الجارية الصافية سواء في النهر أو في حوض التعميد المصمم لهذا الغرض، بحيث لا يكون الماء فيه راكد، لأن الماء الحي يرمز للحياة ونور الرب في العلا... والصباغة يمكن للإنسان المندائي أن يكررها عدة مرات في مناسبات دينية أو يوم الآحاد ، وضرورية عند الولادة والزواج، ويجب أن يقوم بمراسمها رجل دين ، وعلى المصطبغ لبس الملابس الدينية (الرستة) بشكلها الصحيح وعليه أن يحفظ اسمه الديني (الملواشة) بشكل

دقيق... وقد أخذ الأخوة المسيحيون رسم الصباغة من الصابئة المندائيين بعد أن عمد نبي الله يهيا يوهنا (يحيى بن زكريا) السيد المسيح في نهر الأردن، ولكن الآباء المسيحيون مع الوقت طوروها إلى الرش بالماء المقدس، وسموها التعميد بسبب أعدادهم ومسايرة للتطور ومواكبة العصر، وسموا يحيى بن زكريا (يوهنا الصابغ) بـــ(يوحنا المعمدان) لكونه عمد السيد المسيح على الطريقة الصابئية المندائية بالغطس بالماء.

وهنا قد يسأل لماذا الغطس بالماء وليس رش الماء؟ إن الغطس هو عملية انقطاع النشمثا (النفس) عن العالم المادي للحظات، لتبدأ حياة جديدة للإنسان، والإنسان عندما يصطبغ وفق مراسيم الدين الصابئي المندائي يشعر بالسعادة والفرح وقد زالت عن نفسه كل الهموم وكأنه ولد من جديد، يشعر أنه يريد أن يحلق ويطير لأنه أصبح طاهرًا وقد تخلص من أدران الحياة ومن همومه، لأنه ولد ولادة جديدة، وهذا بالحقيقة هو حُبُّ الصابئة المندائيين للسكن قرب المياه الجارية، وهذه الصباغة قد صُبغ بها آدم رأس السلالة البشرية بالغطس بالماء من قبل الملاك المبجل هيبل زيوا بعد أن تمَّ خلقه وأولجت فيه النشمثا (نسمة الحياة التي جلبت له من عالم الأنوار بأمر من الحي العظيم)... ومن الآيات (البوث) التي يرددها المصبغ أثناء الصباغة:

(بسم الحي العظيم... اسأل القوة أن تنعشني قوة الماء الجاري لتأتي إليّ، لقد ارتسمت في الماء الجاري وغطست تحت سطحه وقبلت العلامة الطاهرة ولبست الرستة (أردية النور) ووضعت على رأسي إكليلاً متألقًا وذكرت اسمي الديني (ملواشي) المصبوغ بصباغة بهرام ربا (إبراهيم الكبير) رب القدرة بارك صباغتي والتي ستحرسني وترفعني إلى عوالم النور).

وهنا نقف عند هذه الترجمة التي ترجمت بتصرف، ونسأل عن بهرام ربا، هل هو ملاك نوراني أم هو النبي إبراهيم الخليل، رجال الدين يؤكدون لنا أنه ملاك كبير في عالم الأنوار مسؤول عن الصباغة، وبعض الباحثين يقولون إنها صباغة الدين الحنفي لإبراهيم الخليل... ولترجيح رأي رجال الدين الصائب

فإن المصطبغ يقول : (صببت بمصبوتا بهرام ربا) أي اصطبغت بصباغة إبراهيم الرباني.

وشرح لنا الترميذا خلف عبد ربا وهو من رجال الدين الأكاديميين أن كلمة صبا بمعنى غطس أي تطهر بالماء الجاري ومصدرها (مصبتا) وتعني الصباغة ومنها صبينا صبيت مصبانا ومن هنا جاءت التسمية (الصبا) أو الصابئون، لأنهم يستخدمون الماء الجاري الحي في طقوسهم الدينية...

ويستطرد الترميذا أبازيدون فيقول تعتبر الصباغة (المصبتا) الركن الأساسي في الدين المندائي الذي لابد منه أن كل مندائي يجب أن يجري رسم الصباغة سواء كان صغيرًا أو كبيرًا... ولنطلع على مقالة الترميذا خلف عبد ربه لأنها مركزة وواضحة المعنى والهدف.

إن المصبتا هي الركن الأساسي في الدين المندائي، وهو العلامة المميزة لهذا الدين، وكلمة مصبتا جاءت من الفعل الآرامي (صبا) بمعنى غمس أي تطهر بالماء، وتشتق من هذا الفعل كلمة المصبتا أو الصباغة، ومنها صبينا، مصبانا... إلخ، ومن هنا جاءت تسمية للمندائيين أي (الصبا) أو الصابئون هم الناس الذين يستعملون الماء في طقوسهم الدينية.

المصبتا أيها المؤمنون بمعنى التعميد هي الطقس الرئيسي الذي لابد منه لكل مندائي سواء كان صغيرًا أو كبيرًا...

يهدف التعميد بمفهومه المندائي إلى غرضين اثنين؛ الأول هو إدخال أو قبول الشخص ضمن الجماعة مندائية أي يهيئه روحيًا، وقبوله عضوًا في هذا المجال بمثابة ولادة روحية تكمل ولادته المادية من أبوين مندائيين لطفل، في هذا العماد يزداد برًا بوالديه ويرثه ميراثًا وأسماء لطائفته.

الغرض الثاني هو الاستغفار أي طلب الغفران من سبحانه لمحو الخطايا والذنوب والتوبة صادقة، ومن منا بلا خطيئة، فالخطايا هي ليست جرائم فحسب وإنما هي مخالفة أوامر الخالق، مهما كانت ذنوبنا صغيرة فإننا بحاجة

إلى رحمة الرب وغفرانه إن كنا حقًا مؤمنين، والتعميد له من المعاني الجميلة والعبر المؤثرة وسيجعل الإنسان يشعر شعور خاص بالزهو والعظمة والفخر والارتياح النفسي، وأرجع إلى أخي المؤمن وأنت تقبل على العماد بملابسك البيضاء النقية إنه شعور بالزهو والافتخار بأنك قادم في عمل يتسم بالإيمان والتضحية بالوقت والشعور بالشجاعة والإقدام للتخلص من أدران الدنيا ولتعيش لحظات رائعة منسجمًا مع روحك وربك بعيدًا عن هموم الدنيا ومشاكلها، ولنعد بالذاكرة، أي تلك اللحظات التي تسبق دخولنا إلى الماء طائعين مختارين فرحين بهذا الحدث الرائع الممتلئ بالإيمان الذي لولاه لكان شعورنا بعيدًا كل البعد عن الدين ومتطلباته، وبعيدًا عن الشعور بأننا نؤدي واجبًا ثقيلاً تمليه علينا المجاملة أو حب الظهور أو التقليد الأعمى.

ورغم أن معظمنا لا يفهم ما يقال في هذا الطقس الرائع إلا أن جميعنا في هذه اللحظات نمتلئ بالغبطة والسرور والراحة الروحية التي لا تدرك كنهها ولا نفهم معناها بدقة ولكنها شعور الإيمان والانتماء، ولا أجل ولا أعظم من أن يتوجه الإنسان إلى ربه طالبًا الرحمة والمغفرة والهداية فالمرء المندائي حين يقول:

(أتيت بقوة الحي العظيم
والماء الجاري المقدس سيحتضنني
لكي أتعمد وارتسم بطهارته
لابسًا رداء النور واضعًا على رأسي
إكليلاً رائعًا واسم الحي مذكور علي).

وهكذا تتحلى قدسية التعميد وخلاص النية في التوبة والحصول على المغفرة... أيها المقربون الصادقون (بهيري زدقا) إن أول من تعمد في الماء الجاري هو أبونا آدم أبو البشرية عليه السلام، وهكذا تخلص أبونا بعماده من خطيئته وبأمر خالقه انتشر أبناء البشرية ليعمروا الأرض.

وسرت من بعد آدم طقوس التعميد على البررة من أبنائه وأحفاده حيث جاء أبونا شيتل معمدًا أبناء المندا ومستغفرًا لهم، مستنكرًا بذلك عبادة الشمس أو القمر أو الكواكب أو النار راسمًا إياهم برسم الحي الطاهر المقدس، ولنا أسوة حسنة بالسيد المسيح عندما جاء يرجو أبانا يحيى بن زكريا ليعمده فاتحًا بذلك بشارة المناداة بالدين المسيحي...

فلنتقدم أيها المختارون خطوة أخرى إلى الأمام بتقبلنا العماد بفهم صادق ونية خالصة كعبادة خالصة للرب لا كواجب تؤديه، ولنحاول أن نفهم العماد على حقيقته بفهم طقوسه ونصوصه وذلك للتقرب إلى اللغة المندائية الحبيبة، ولنغير معًا النعوت التي تقال عنها إنها لغة طقسية ميتة أو تكاد... وليحفظكم الحي الزاكي.

**الدين المندائي والمجتمع :**

يشميهون اد هيي ربي... إليك هذا النص من نصوص الكنزا ربا مبارك اسمه (من اد برهموث ماري بغرا اللغيطلي نشلم ادنقي هطايي نسق نهزوني الاثر نهورا) حرفيته (من صان جسده محبة للخالق يكتمل دون خطايا ويرتقي متطلعًا إلى بلد النور).

يبدو هذا النص للقارئ بسيطًا عابرًا؛ كما ذكر الأستاذ أمين فعيل حطاب في مقال له، حيث أكمل: ولكنه في عمقه يغطي رقعة كبيرة من الدين، لا بل هو الدين بأسره فالغرض الذي يسمو به الدين لا يقتصر على الجانب النفسي، ولا على الجانب العقلي ولا على الجانب الأخلاقي بالمستوى الفردي فحسب وإنما امتد ليشمل المظهر الاجتماعي والسياسي العام، وهذا يمنح الدين المندائي في هذا التصور جانبًا عمليًا واضحًا يؤكد اتجاهه إلى الكيان الإنساني كله، وذلك بأشغاله الشخصية الإنسانية، وأتاح أوسع مدى لقواها وملكاتها، ولم يكن مجرد أمر يتعلق بالعقل أو القلب أو الإرادة، وإنما يمتد ليجعل المندائي يسلك طريق السلامة والشرف المفضي إلى السعادة الأخروية والضامنة لحسن سلوك مجريات الأمور في الحياة الدنيوية، فلو عدنا إلى النص ودرسنا الجانب النفسي لرأينا أن عقيدة النور جعلت المندائي مدركًا يعرف حق المعرفة أن الحي العظيم هو المبدع، وأن خلقه في غاية الكمال والتمام وأنه عندما أنزل النفس في الجسد بعد أن سلحها بسلاح الناصورائية وأورثها جميع صفاته جعلها قرينة لذلك الجسد، وأن صيانتها للجسد من النقص والوفاء للخالق هو واجب سامي، أما العبث بأي جزء من أجزاء الجسد يعتبر خيانة للحي العظيم.

لذا نرى المندائي يحرص كل الحرص على سلامة جسده، فقطع أي جزء منه كالكزارة[1] مثلاً إذا لم يكن مجبرًا على ذلك يعد خروجًا عن الدين المندائي

---

[1] – الكزارة = الختان .

وخيانة كبيرة تقود النفس إلى الجحيم، وحتى إذا كان مجبرًا فهذا يجرده من حقوق دينية كثيرة يتمتع بها الكامل الجسد...

أما عن الجانب العقلي؛ فالإنسان الواعي يشعر أن هذا النص يدعوه إلى الصوم الكبير، وهو صوم العين والأذن واللسان والقلب والضمير، وهو صوم اليد والركبة والقدم، إنه الإمساك عن كل ما يحمل النفس خطيئة تجعلها تعاني من النقص والخسران، أما من الناحية الأخلاقية فهو يفرض على المندائي الابتعاد عن كل النجاسات مثل الزنا والفسق والرجس والدعارة، كما أنه يمنع الزوج من التقرب إلى زوجته وهي بعد لم تتطهر من نجاسة الحيض والطمث، ويمنع الإنسان عن ارتكاب الجرائم المخلة بالشرف، والتي تجعل المجتمع ينظر إليه بازدراء واحتقار.

من هذا النص ومن نصوص عديدة تزخر بها كنوزنا المندائية؛ نجد أن الدين المندائي يهدف إلى إنشاء مجتمع قويم واسع الأرجاء متكامل الأركان، يسوده العدل والنظام، فالحي العظيم هو العادل، وإن عدله يقتضي مادام قد كلف الإنسان أن يجعل له القدرة الفاعلة لفعل الخير بحيث يكون هو المسؤول عن فعلته، وليس للحي العظيم دخل في ذلك، بل يحاسبه على كل صغيرة وكبيرة لأنه هو الحاكم هو الديان، وأن الإنسان في وضعه الدنيوي من أجل أن يكون عادلاً بحيث عدله يوفر له مكانة مرموقة في المجتمع؛ عليه أن يكون عادلاً مع نفسه كقوله: (ريش كينوثخ كن نفشخ واتقبل مينيلي اد هكيمي) رأس عدلك أن تعدل نفسك وأن تقبل أقوال الحكماء...

فالعدالة في الفرد أو التعاون الفعال بين طبيعته، فالإنسان عبارة عن عالم من الرغبات والشهوات والآراء، فإذا اتسقت هذه القوى النفسية وتعاونت فيما بينها ظهر هذا الإنسان رجل حكيم عادل، أما إذا اختل التوازن بين هذه القوى وسيطرت الشهوات عليها واستبد العقل فيها تصوره مطلقة تصدعت أركان الشخصية الإنسانية وسرى فيها الشر والفساد فالعدالة إذن هي الحرية والجمال

والنظام في النفس ، فالعادل لا يدع قواه الروحية تتجاوز حدود اختصاصه ، واختصاص غيرها ، وإذا هو سيد نفسه يعقل خلته ليكون على أتم وئام مع نفسه، ويجعل القوى تُعطي نغمة واحدة.

إذًا فعدالة الإنسان واقتدائه بعدالة الحي العظيم تمتد إلى علاقته في المجتمع فيكسب ثقة الآخرين ويكون قدوة حسنة لغيره في المجتمع ، إذن فالإنسان في قواه النفسية يُعتبر نموذج مصغر للدولة والمجتمع وهو حجر الأساس ، ومتانة المجتمع من متانته ، إذن فالدين إما واجب للمجتمع ، فالعقيدة المندائية تحقق للمجتمع عناصر تضمن السلوك السوي والسير المستقيمة في حياة هذا المجتمع، ومن هذه العناصر الحيوية الحياء ، الأمانة ، الصدق ، ولكل عنصر مقوماته الخاصة ونتائج القيمة بالنسبة للفرد والمجتمع توضح جميعها المزايا الخاصة التي يتمتع بها الدين المندائي ، والأهداف التي يسعى إلى تحقيقها بنجاح ، مدعومة بالشواهد التاريخية الموثقة التي تؤيد ذلك.

أما ما يتصل بالعلم والتعلم في المندائية أعلت قيمة المعلم وجعلته يقتدي بالمعلم الكبير وهو الحي العظيم، أما القصور في ذلك فخطيئة لا تغتفر ، كقوله: (ويل للمعلم الذي لا ينتفع منه ومن علمه ، وويل له إذا لم يعلم حكمة الحق)، كما أقام الدين المندائي وظيفة المؤدب الذي يعمل على تصحيح السلوك بالدعوة إلى الفضيلة المتوحدة بإعطاء يمين العهد (الكشطا) والدعوة إلى حل الخلافات بقول: (لا يكن بينكم الكره والضغينة والشقاق ، أحبوا واسندوا بعضكم بعضًا ، وكونوا سندًا للطيبين الذين طالهم الظلم والمعاناة).

إذن فالدين المندائي ينهى عن الكراهية والضغينة والتفرقة لأنها تسعى إلى تفكيك عرى المجتمع وإضعافه ، كما أقام الدين المندائي وظيفة المجاهرة بمحاربة الشر وكبح جماحه وذلك بقوله: (إن امتلكت القوة أيها الناصورائي كن كممتار صالح اختير لكل شيء ، أو كملك تقلد تاجه وأشعل حربًا في عالم الأشرار ، وحجر الشر ومريديه) ، كما أن الدين المندائي لا يكلف النفس إلا

وسعها بقوله: (وإن لم تمتلك القوة كالمختار الصالح فكن أيها الناصورائي كالفلاح الماهر الذي يعمر الأرض ويعلي في أجوائها الشجر).

أي أنه في كل الأحوال يجب أن يكون عنصرًا مميزًا يقتدي به في المجتمع، وأن يلتزم جانب الخير ويسعى لإضعاف الشر كقوله: (إذا زال الخير وقوي الشر فكن أشد أزرًا نحو الخير لتكبح الشر وتعيد الفضيلة إلى عرشها)...

كما يدعو الدين المندائي المندائيين إلى المشاركة الفعالة في الحياة الاجتماعية كمثالية دينية أساسية وليس لمجرد النفع المادي العاجل لأنه يرى أن المجتمع مجموعة من العقول والأنفس أولاً، أما الصورة الشكلية للنظم فأهميتها بالنسبة للدين ثانوية لأن مجتمع العقول والأنفس يتطور عن طريق استيعابه للقيم النزيهة والمثل العليا التي يغذيها الدين فيه، فهو ينحو نحو الحصول على مقومات الكمال الحسي والثقافي، كمثالية هادئة ويسعى إلى تعميق هذه التجربة وإحيائها إلى درجة كبيرة، وبذلك تشعر النفس بالسلام والأمن والسكينة والمتعة والسعادة الروحية لاتصال النفس والعقل بالحي العظيم، وهذا الشعور قد يبدو فرديًا يحس به الفرد في خلوته، وقد يتمتع به الإنسان مع غيره داخل المجتمع لذلك فهو يدعو لكسب الراحة والسلام بمنعزل عن العنف والغطرسة، كقوله: (نياها نهوي البر من مريدا)/ لا توجد الراحة إلا بعيدًا عن العنف.

كما يتيح الدين المندائي للفرد رؤية قصور الهمة ووجود النقص والإحساس بالذنب مع رؤية الطريق الواضح والخلاص، وقد تبدو في هذا المقام ذنوب التقصير في أداء الواجب مماثلة للذنوب الخاصة بارتكاب ما ليس مسموحًا به، ويبدو هذا واضحًا في النصوص التي تبدأ بكلمة (ويل) أو بكلمة (طوبى).

أما السماحة بتقبل التطهر والتبرك وإدراك الحق والخير والجمال في كل صورها كمنح للحي العظيم الممنوحة للناس ومن العجب أن يعد تقدير هذه القيم والتمتع بها أمر ملزم، وهي امتيازات إنسانية يتحلى بها المندائي ليكون مثلاً لغيره في المجتمع يقتدي به الآخرون.

كما أن الدين المندائي يتحدى المجرم بإفساح أوسع المجالات للتوبة وإعادة الفكرة الحسنة، وتجديد السلوك على أن تكون التوبة متوجة بأعمال خيرية تليق بها وأن فكرة إمداد الحي العظيم بالعون على التوبة وتصحيح السلوك وإنجاز العظيم من الأمور تساهم بدرجة كبيرة في حمل المجتمع على استخدام أقصى طاقاته التي كان من الممكن أن تظل غافية في طي الكتمان والإهمال.

ومن جهة أخرى إن إصرار الدين المندائي على الجانب الروحي كجزء أساسي في التقدم الاجتماعي يجعله بلا شك أبعد عمقًا من الكثير من النظريات التي تضع ثقلها كله على التنظيم الشكلي والخارجي للمجتمع.

أما من ناحية موقف الدين المندائي تجاه الآلام والمحن والأحزان؛ فذلك فريد للغاية، فهو من جهة يشعر الإنسان بأنه يجني هو ثمرة ما يزرع ومن ثم يوجهه الإنسان بطريق مباشر أو غير مباشر إلى ضرورة تفادي ما تسوء عاقبته وما لا يحمد مصيره.

أما فيما يتصل بالحوادث القاهرة فيرشد إلى التحمل والصبر الواثق بالحي العظيم الذي يهيئ السبيل إلى كشف الغمة وإلى التقوية على التحمل، ومما لا جدال فيه أن المحن والآلام والأحزان تعتبر تحديًا سافرًا للنفس الإنسانية وبالدين تتحمل الطاقات العقلية والسلوكية مسؤوليتها في استئصالها أو منعها أو تفادي الانهيار أمامها.

إن الدين المندائي على الناس من خلال حكمه ومواعظه وعبره أن المحن والبلاء سُنة حتمية في هذا الوجود قد تتخذ محكًا لتطوير وإنضاج الشخصية الروحية للمندائي حتى يسترد ابتسامته أضعافًا مضاعفة بعد أن ضاق الفرق بين الأفراح والأتراح، مع هذا فالدين المندائي يحرص على توازن الشخصية المندائية وعدم تعرضها للاضطرابات المفاجئة خضوعًا لتيارات البؤس المتقلبة وأنه علم المندائي أنه لابد في النهاية من انتصار النور على الظلام والخير على الشر، والحق على الباطل، لذا فهو يعد بالنجاة والخلاص بعد أن أكد أن

قدرًا من هذه النجاة يتحقق من خلال بعض الصعاب وتحمل الآلام، فلم يكن الدين المندائي مجرد مذهب سطحي للتفاؤل، ولم يكن مدعاة للتشاؤم القانط.

فالتفاؤل لا يكون مقنعًا إلا إذا ارتبط بالدين حيث يرسو في النهاية على إدراك الحياة والغاية منها، وإلى الظفر بمحبة الحي العظيم وشرف اللجوء إليه، وعزة الاحتماء به وسعادة الإقامة في موطنه، وهذا بالطبع يدفع المندائي لأن يكون سباقًا في عمل الخير عن ثقة وسعادة، ويرى أن للكفاح والجد والعمل جدارة لا تبارى كقوله: (من أهلا وتنغر نيثي وننسب طبوثا بتارتين ايدي ومن لاهلا ولا تنغر هاتم باهش بكنهي ولامشكي)، (من تعب وتعذب يأتي ليأخذ الخير بيديه، ومن لا يتعب ولا يتعذب يبحث عما حوله دون جدوى). يوازي هذا النص المثل القائل (من جد وجد، ومن زرع حصد ومن لعب نكد). ومن الجدير بالذكر أن المندائية تصف السعادة التي بدونها يغدو الوجود الإنساني خاليًا من كل معنى أن تسمو على كل المتع والآلام التي لا يمكن لأي إنسان ممزق النفس موزع الخواطر مشرد الذهن أن يدركها ويشعر بها، إذن فالسعادة هي تكامل النفس ووحدتها بينما كل توزع وتفرق وتشتت داخل النفس يبعد عن الحي العظيم...

وأخيرًا يؤكد الدين المندائي بالاستمرار الروحي بعد الموت، والحصول على الكمال والسعادة دون أي شائبة، ولا يكون له شفيع في الآخرة إلا أعمال الخير التي أنجزها للحي العظيم وللمجتمع بأسره.

**التعميد لدى المندائيين وطوائف أخرى :**

للتعميد والصباغة أهمية بالغة ليس لدى المندائيين وحسب بل ولدى طوائف عديدة أخرى وعبر أزمنة مختلفة، وذلك كما ذكر فيصل عنيسي ربح من واسط في مقال له...

**أولاً : التعميد لدى البابليين :** إن الديانة المندائية والديانة البابلية تنزلان الماء منزلة عالية، فالبابليون ومن قبلهم السومريون والأكاديون كانوا يرون في الماء مصدرًا للحياة بحيث إن أسو (اكادية) أو أبزو (سومرية) تعني هاوية الماء العذبة، وقرينته (تي آمت) مياه البحر المالحة، هما مبدأ الخلق اللذان لا أول لهما ولا أخر ، ومنهما تولد الآلهة الآخرون ، وقد نقل العراقيون من بعد يتوارثون تقديس الماء واعتباره أداة للتطهير.

لقد كان من تقاليد الطقس اليومي للمعبد أن أن يجري غسل تماثيل الآلهة ورش المعبد بالماء الطاهر ، يذكر غالبًا (ماء الحياة) بصورة خاصة في شعائر (أبا ومردوخ) كما يقول الفريد جريمياس في مقال (السماء البابلي والجحيم)، حيث يقول إن ماء الحياة كان يشرب أيضًا ولا يستعمل فقد للرش، وكان ينظر إلى دجلة والفرات كونهما نهرين مقدسين تجري الأضاحي لمياههما ، وتقام على ضفافهما التطهيرات المقدسة (وأيا ومردوخ) هما إلها ماء الحياة، بأمر من (أيا) يجب أن تفتح الدنيا ينبوعها من الماء الخالد ، ويسمع أيضًا (إناء مردوخ التطهيري)، وكان كاهن (باور)، يجري التطهير يدعى (أي)، يتشابه ربما مع المندي الصابئي المندائي، يقام على ضفة النهر مع بيت عبادة وبركة للسماح بمرور الماء الجاري من النهر وإليه بقناتين.

**ثانيًا: طوائف البحر الميت :** وهي (الأسينون والجليليون والأبيونيت والسامريون والنازاريون والأورسينيون والسامبسانيون وأتباع الحسح والهيميروبابتست والمصبوثيون)...

وتذكر أوصاف طائفة الأسينيون كما يوردها جوزيفوس أنهم أناس تقاة عفيفو النفس واللسان معادون للظلم، عادلون يرأفون ببعضهم، شديدو التقيد بالضبط النظام، يكبحون الشهوات لا سيما الجنسية، ملكيتهم مشتركة، ملابسهم بيضاء، يستحمون باستمرار بالماء ليطهروا النفس والبدن، يصونون معتقداتهم عن الغير، لقد كشفت التنقيبات التي أجريت في (خربة قمران) عن نظام لحفظ الماء يضم عدة أحواض كان يستخدم بعضها لإجراء طقوس الاستحمام، ورغم أن هذا الاستحمام كان يمارس يوميًا، إلا أن النص عليه كالتزام في كتب الطائفة، كان يعني طقسًا دينيًا في الأساس.

ففي كتاب (الضبط) وهو واحد من الكتب التي اكتشفت هناك (الفصل الخامس الفقرة/ ١٢)، ورد ما يلي: (لا يسمح للأشرار الدخول في الماء حتى لا يمسوا طهارة المقدسين، إذ هم لا يتطهرون مالم يتخلوا عن شرورهم، ذلك لأن النجاسة هي عند جميع أولئك الذين يخالفون كلمة الله)، يقول جوزيفوس في المجلد الرابع ص٢٢٢، أن الطهارة لدى الأسينيين شكل من أشكال التعميد، لأنها كانت تمارس قبل وجبة الطعام اليومية العمومية، أو إذا تدنس (أخ) بتماسه مع أفراد فئة أخرى أدنى منه دينيًا، أو في حالة قبول مرشح عضو في النظام الكهنوتي... ونلاحظ هنا أن الصابئة المندائيين يحبذون الارتماس في الماء الجاري قبل تناول وجبات الطعام في أيام العيد الديني (البروناية) البنجة.

**ثالثًا: التعميد لدى طائفة الحسح:** تكنى هذه الطائفة باسم رئيسها (الحسح)، وجد أتباع الحسح في الجانب الشرقي من نهر الأردن في القرن الأول الميلادي وما بعده، وقد اتخذت الطائفة من التعميد ركنًا أساسيًا في دينها وطقوسها الدينية وهي فرقة يهودية جاءت بدعوى إعادة تجديد اليهودية، وأن الشيء الرئيسي في ديانة الحسح هو التعميد وكان يبشر بأن الانغمار الكلي في ماء النهر أو الينبوع دون خلع الملابس هو الوسيلة للتخلص من جميع الخطايا، وكان يوصي بأن يمارس الطقس (باسم الله العظيم والأسمى) مع قراءة التراتيل، ويعلن المرء قبل انغماره في الماء الامتناع عن كل الخطايا والسلوك غير المستقيم، وكذا

الأمر عند طلب الشفاء من المرض أو التعرض إلى عضة كلب أو حيوان سام أو لدى الإصابة بالسل الرئوي أو من تداخلهم الأرواح الشريرة، وفي حالة كهذه يطلب من الفرد أن يغمر نفسه في الماء البارد في نهر أو ينبوع دون أن يخلع ملابسه أربعين مرة خلال سبعة أيام، وإذا كان عاجزًا عن ذلك فيجوز أن يؤديها شخص آخر باسمه ويتلو التوسلات بالنيابة عنه، واشترطت التعاليم من بعد على أن يجري الطقس بحضور شاهد للقسم، ومن يمارس هذا الطقس ينطق بهذا القسم مخلصًا.

**رابعًا: هناك طائفة عاشت في المنطقة الواقعة** إلى الشرق من الأردن والبحر الميت تدعى طائفة إلى السامبسانيين لم يكونوا من اليهود أو المسيحيين وإنما موحدون وحسب، وكانوا يكذبون كلا من (العهد القديم والعهد الجديد) وكانوا يمارسون التعميد ويمجدون الماء ويرون فيه أصل الحياة ويؤمنون بيوم الحساب ويفضلون الزواج المبكر ويعيبون العزوبة، ويتصف معهم في هذه المزايا كل من الناصورائيين والنازاريين والآوسينيين.

**خامسًا: التعميد لدى الفرس:** تلاحظ دراور أن البارسيين (وهم بقايا الفرس الزرادشتيين) الذين انتقلوا بعد الفتح الإسلامي إلى الهند واستقروا هناك يلبسون في طقوسهم الدينية ملابس بيضاء تشبه كثيرًا الرستة المندائية، وفكرة الماء الجاري كمطهر من الخطيئة الطقسية والخطأ الخلقي موجودة في الدين الفارسي القديم تظهر لدى البيروني ص٢٠٢، يقول: أمر (ياما) الناس بأن يغسلوا أنفسهم بالماء ليتطهروا من خطاياهم، وأن يفعلوا ذلك كل عام لينجيهم الله من مصائب ذلك العام.

وهناك رأي آخر، فإن سبب الاغتسال هو أن هذا اليوم (يوم رأس السنة) هو يوم (هاروذا) المقدس ملاك الماء الذي يتحكم فيه، لذلك كان الناس ينهضون من النوم في هذا اليوم مبكرين مع انبثاق الفجر ويذهبون إلى الماء الجاري

بإناء ويصبونه على أنفسهم معتبرين ذلك فألاً حسناً ووسيلة لنجاتهم من الضرر وهذا (الهارودا) يمكن أن يكون (هاورفاتان) الروح المجسدة للصحة والإنبات.

**سادسًا : الاغتسالات لدى الهنود :** يعطي رايزن شتاين ص٢٠٣ ، وصفاً للاغتسالات الهندية التي تجري في عيد (أفارونا براغاسا) وفي تضحية (سوما) ولكليهما أصيلة تتشابه التطهر من الخطيئة وصيرورتهم أبناء النور واكتساب الخلود ، والألفاظ التي يتفوه بها القائمون بهذا العمل حين يغادرون الماء بعد أخر إجراءاتهم تشبه إجراءات المندائيين بشكل يلفت النظر فهم يقولون (لقد شربنا سوما وأصبحنا خالدين وذهبنا إلى النور).

**سابعًا: التعميد لدى الصابئة المندائيين وأوجه المقارنة:** (لا يصح إلا الصحيح)

١- إن الصباغة المندائية (التعميد) ، هي طقوس متكاملة في طريقتها ومضمونها وهدفها المندائي الذي هو (الاتصال بموطن النور والاتصال بالقوى الواهبة للحياة) ، ولا يعتبر الاغتسال بالماء لدى المندائيين رمزًا (للحياة) فحسب بل يعتبر إلى درجة معينة (الحياة نفسها) ، (لقد أعطى أنش أثرا بأمر من الحي العظيم أنشباي ماء من اليردنة لتشرب ومن ذلك أصبحت حاملاً وزكريا وأنشباي كانا شيخين وهي امرأة عاقر).

٢- إن طقوس الصباغة المندائية بعيدة كل البعد عن عملية (طقوس التطهير البابلية) فهي إضافة إلى ما تعنيه – الاغتسال بسائل الحياة – فإنها تعني الثبات في العقيدة والمعرفة والحياة والارتقاء (مسقثا) ، وتعد الإنسان بحياة أبدية ، وبدونها لا يمكن ل (نشمثا) أن تصل عالم النور ، إضافة إلى كونها تعني إزالة الخطئية والنقاء والنصر والشفاء ، وتقي الإنسان من الأرواح الشريرة.

٣- إن العهد (الكشطا) هو العهد الذي يأخذه المتعمد على نفسه وهو يصافح رجل الدين الذي يعمده ، كرمز للإيمان والإخلاص ، لا نجده في طقوس التعميد عند الطوائف الأخرى وإضافة إلى (الكشطا) ، فإن شهود المندائي عند التعميد هي : النهر الجاري والبهثا أي (الخبز المقدس) والممبوها (الماء المقدس) الذي

يشربه المتعمد ، والزدقا أي الصدفة التي يقدمها ، كما جاء ذلك في كتاب (القلستا).

٤- نجد في الأدب المندائي ورود كلمة (يردنا) وهو الماء الجاري، لكنها لم ترد عند طوائف مارست عملية التعميد ، وإن وردت فقد جاء قولاً مجازيًا للتعميد وليس بمفهوم الماء الجاري الواجب توفره أثناء إجراء طقوس التعميد كما هو الحال في المندائية، وأن المندائيين لا يعتبرون كل الماء الجاري هو ما يهب الحياة والقدسية ، إن جزء صغير من الماء الجاري هو الماء الحي ، أما الأجزاء الأخرى تدعي (تاهيمي).

٥- يحدثنا الأدب المندائي عن قيام (منداهيي عارف الحياة) ، بتعميد (الملاك هيبل – زيوا) في عالم النور ، عند رجوعه من رحلته إلى عالم الظلام، وأن (الملاك هيبل – زيوا) ، جلب طريقة الصباغة المندائية ، من عالم النور لذا فالصباغة المندائية أقدم من كل ما اتبع في بقية الطوائف، كما أن النبي آدم (ع) أول من عمد بها من قبل (الملاك هيبل – زيوا).

٦- إن التعميد المندائي ليس هو تعميد التوبة أو تعميد القبول، لأن ذلك يحدث مرة واحدة، بينما يستطيع الفرد المندائي أن يصطبغ مرات عديدة مدى الحياة، إن طريقة التعميد التي مارسها (يوحنا المعمدان)، كما يذكر رودولف في كتابه prol-s-230 والتي بمفهومها لا تنطبق وطريقة التعميد التي مارستها طوائف تعميدية أخرى أو تعميد ككسب جديد أو المهتدين حديثًا ، ويختلف النبي يحيا (ع) في كونه لا يطلب ممن يرغب في التعميد أن يختتن أولاً ، ويقدم قربانًا للهيكل ثم يتعمد كما هو الأمر لدى اليهود عند تعميد من يريد اعتناق اليهودية، ويتميز تعميد النبي يحيى (ع) كذلك كونه طقسًا دينيًا ، يقدم عليه الفرد طوعًا بغية التخلص من خطاياه على يد شخص له منزلة كبيرة في النفوس.

٧- إن الطقس الذي مارسته طائفة البحر الميت يماثل ما يدعوه المندائيون بـــ(الطماشا) وهو نوع من التعميد الذاتي يؤديه الفرد إثر كل تعرض للنجاسة، كمس الميت... أو عند حيض المرأة... الخ.

٨- إن طقس التعميد لدى الصابئة المندائيين يتطلب ملابس خاصة تسمى (الرستة) ، وهي ملابس بيضاء ذات مواصفات خاصة معروفة لدى الفرد المندائي.

**المرأة المعرفة الطيبة : نورا منذا طايا :**

تناول ذلك الموضوع أمين فعيل حطاب في مقال له حيث ذكر : قال منذادهيي إنك لم تتعلم يا بو يوشامن بعد من دمار الألف عام إذ لم يكون كما كان بأربعة وعشرين ألف عام ، كما أنك لم تتعلم الحكمة من الأولين ، وافترقت عن أنانا دون أن تطلب منها المعرفة الطيبة ، أن تفعل خيرًا تجد خيرًا وأن تفعل شرًا تجد كراهية ، فإن أصبحت لطيفًا فنورك لا يتبدد وأن خططت أمرًا سيئًا فالعرش الجميل الذي تعتليه ينقلب عليك ، فاسمع ما سأقوله لا تقلق ولا تضجر ولا تجعل النقص والريبة يتسللان إليك ، اسمع قول الحق ، إن الرحمة وجدت بعيدًا عن العنف فاقتلع الآن الرائحة الكريهة من دارك ولسوف يهب عليك نسيم مشبع بالأريج ، ولا تنسَ أن الحق رفيع العماد والعدالة ترصد كل الأخطاء (دراشا اد يهيا).

على السطح المستوي الصقيل المفضفض تنعكس الأشعة الضوئية لتتفرق في الحقيقة وتتجمع في الخيال فإن نظرت في المرآة ترى صورتك وهي وهمية ليس إلا ، فإذا أمعنت النظر دون أن تغوص في أعماقها فإنك حتمًا سترى مظهرك وقد تعجب بأناقتك أو لربما تمقتها لأنها لا تكون ذات الجمال لكن هلا سألت مرة كيف تبدو جميلاً ومحترمًا وجذابًا وذا موقع مرموق في المجتمع ويشار إليك بالبنان رغم أن ملامحك لم تكن جميلة أو أنك ترى نفسك إنسانًا فاشلاً غير محترم ، وليس لك وزن في المجتمع رغم جمال ملامحك ، كيف تجعل هذه المرآة مرآة تخترق ذاتك فتشعرك بنقاء الضمير ، أو بتأنيب الضمير.

إنها المعرفة الطيبة التي تزخر بها شامخة كنوزنا المباركة، تلك المعرفة التي سميت بالكشف العظيم والتي تجلت أمام آدم الرجل الأول رأس السلالة البشرية وعندما استوعب منها اكتسى برداء الضوء والنور والوقار ، ذلك الرداء الذي اكتسى به من بعده رام الرجل الذي نجا من الدمار والوباء ومن بعده شرحبيل الرجل الذي نجا من النار ، ومن بعده شوم برنو الذي نجا من الطوفان ومن

بعده نبينا يهيا يهانا مباركة أسماؤهم ، إنها المعرفة الطيبة التي تنور بها الناصورائيون وتسلحوا بالناصورائية وهو أمضى سلاح في العالم إنه سلاح المعرفة الطيبة ، فالمعرفة الطيبة كما الحياة من يرتوي منها يسعى جاهدًا نحو الفضيلة والصلاح ، وكماء المكرمات الذي تنبت فيه الأخلاق كالنبات (قال نبينا يهيا يهانا مبارك اسمه أن الشجرة التي تشرب من ماء الحياة تعلو وتتشابك أصولها ، وتأتي ثمرًا طيبًا ، أما الشجرة التي لا تشرب من ماء الحياة أن ثمرها مر ، فيجب أن تقطع وتلقى حطبًا في النار).

إن المعرفة الطيبة تفيض بالحكمة الخيرة فمن تفقه بها وطن نفسه في طريق الإصلاح وحق له أن يكون معلمًا يعلم حكمة الحق بكل صدق وإيمان أنه المعلم الذي إن علم شيء أكد على علمه به ، وإن جهل شيئًا اعترف بذلك لأنه عرف طبيعة المعرفة (طوبى لمن عرف الإصلاح وسعى إليه) فبالمعرفة الطيبة يستطيع الإنسان الذي لا تزيد حياته عن طرفة عين في الدهر أن يعيش ليدرك السلام وأن يتخلص من آلام الدنيا ويسعى للخلاص بصالح الأعمال التي يأتيها عن فهم وعقيدة ، فالخلاص يكمن في النفس المتمعنة التي تستطيع نكران ذاتها وتستطيع صيانة جسدها (من صان جسده محبة للخالق يرتقي دون خطايا متطلعًا إلى موطن النور) (كنزا ربا)... فالمتنور بنور المعرفة الطيبة ، لا يقول إلا الصحيح ولا يكذب أبدًا ولا يفتري على أحد ولا يكون فظًا أو شرهًا ، ويجاهد من أجل الخير ويتجنب الشر ويفكر بالحقائق النبيلة بهدوء وحسن تمييز من أجل بلوغ طريق السلام التام ، وتلك هي صفات نبينا يهيا يهانا مبارك اسمه.

فإذا بلغت المعرفة الطيبة أيها المندائي حتمًا ستسعى إلى الكمال الذي يحتم عليك أن تتحرر بأكمل صورة وأن تراعي الفضيلة وتتجرد عن الشهوات ، ولا تؤذي أي مخلوق ضعيفًا كان أم قويًا ولا تتسبب في القتل وأن تكون سمحًا بين البخلاء وأن لا تبالغ في التقدير ، ولا أتحسد أحد ، فالحسود لا يسود ولن يهدأ له

بال، ويكوى بنار غضبه (ويل للعين الحسود التي تضمر الشر لهذا العالم) فمن أقوال نبينا يهيا يهانا مبارك اسمه:

(أيها الناصورائي أظهر نفسك، وميزها بضوئك وبنورك وبوقارك وبحكمتك وباستقامتك وبعدالتك وبأجرك وبإظهارك الحق وبكل أعمالك الخيرة، وإذا صاحبت فليس ثمة أنكى من الصحبة الشريرة، كن ناجحًا في حياتك وفي علاقاتك مع الآخرين، وعندما تصطفي الصديق جربه أولاً ولا تتعجل في الاعتماد عليه لأن الصديق حصن منيع من وجد واحد فقد وجد كنز، فكلمة الصديق لا يكاد القلب يعلم من أين جاءت إنها جوهرة من الكلام للبشر، فلا تتمسك إلا بالأصدقاء الذين طالت تجربتهم لا تغلظ القول لأي صديق أو لأي أحد لأنك ستكون من الحمقى ولا تنسى أنك كما تخاطب تجاب، وكن هادئًا مع من كان هادئًا كانت آراؤه وكلماته وأفعاله هادئة ومثمرة بفيض منها الخير، افعل الخير فمن فعل الخير مرة وجد السعادة في تكراره لأن تراكم الخير بهيج، أما تراكم الشر فهو أليم فتجنب فعل الشر... عليك أن تنبذ الغضب وتنأى عن الكبرياء وتتغلب على كل القيود التي حاكها الظلام، فالمرء المتعلم يقهر الغضب بالحب والشر بالخير والجشع بالسخاء والبهتان بالصدق، فالشر يأكل صاحبه كما يأكل صدأ الحديد أصله لا يكون الحسود، ولا البخيل ولا المخادع محترمًا لمجرد جمال صورته فإذا أمعنت النظر فيها جليًا تراها شاحبة وحزينة وليس فيها دافع للحياة، فأفق حين يتأتى لك أن تفيق فالكسل لا يصرع إلا من كان خائر العزم والفكر ولا يبلغ الحكمة "احترموا آباءكم واحترموا أمهاتكم واحترموا أخوتكم الكبار أجمعين، أن من لا يحترم والديه مدان إلى يوم الدين"... كنزا ربا).

من اعتاد على احترام الكبير يرى الحياة والجمال والسعادة والبأس بين يديك، فالإنسان الرفيع يكون متواضعًا ويحترم من هم أكبر منه، ويكون بارًا وعادلاً (طوبى لمن بر بوالديه إنه لا يوجد مثيله في العالم)... (دراشة اد يهيا)... كن أيها المندائي من الأخيار فالأخيار يتألقون من بعيد كما تتألق قمم الجبال الشاهقة

المكتسية بثوب من الجليد الناصع البياض إنهم يتألقون لأنهم يعرفون الحرام حرامًا والحلال حلالاً ويتحلون بالصدق ، ويتمسكون بالعقيدة الصحيحة ويسلكون طريق الصلاح.

لا تسرق النظر إلى حرمة جارك وإلا فستدعى سارقًا وينتابك الشعور بالنقص ويكون مضجعك مقضوضًا وسمعتك رديئة والطريق يسوقك إلى الجحيم فاضبط عينيك من الغمز والرمز لأن ذلك خيرًا والخير في ضبط الأذن ، والخير في ضبط اللسان ، ويكون الخير وفيرًا في ضبط العقل لأن فيه ينضبط كل شيء.

اسمع أيها المندائي النبيل إلى طريق المعرفة الخيرة التي تفيض بها كنوزنا المندائية دون أن تنضب ، اغترف منها فإنها تجعلك تدرك نفسك وتحسبها لأنها من ذات الحي العظيم ، فالمتنور ينور المعرفة الطيبة يفعل الخير بإرادة حرة وبثقة عالية ويشعر بالقوة الخيرة فلا يطاطئ رأسه للشيطان ولا يقرب الحكام المردة المتسلطين الذين ينجزون أعمالهم بالسوط ويجلسون على عروش الغطرسة والخيلاء فإن طاله الشر لا يضعف ولا يلين ويبقى راسخًا في التقوى وكابحًا لجماح نفسه لأنه نقي القلب متحكم في الإحساس ومتفان في العمل الدءوب المجدي ، إنه يسهم في تدوير عجلة هذا الكون العظيم بقلب متفائل ، فعندما يدول الخير ويقوى الشر ؛ يغدو أشد أزرًا للخير ليدحر الشر ويعيد الفضيلة إلى عرشها.

فإذا نظرت إلى نفسك في المرآة سيكون بصرك ثاقبًا يريك جمالك الحقيقي ، وموقعك المرموق في المجتمع ، فيشدك إلى إعمار ما دمره الأشرار على أسس صحيحة مبنية على المعرفة ، أيها المندائي... يا من بحوزتك تلك الكنوز الزاخرة بالمعرفة الطيبة ، عيب عليك أن تكون من الجهلاء الذين يبتعدون كل البعد عن المعرفة الخيرة ، فالجهل استثراء الظلام والغباء والكسل والغفلة فثمرة الجهل ظلام حالك لأنه يعمي الإنسان ويكبل روحه ويجعله يتمسك بالمعرفة الباطلة تمسكًا أعمى ، وكأنها كل شيء لأنه محروم من النور ، وبليد ولن

يستطيع أن يقطع قيود الشك التي تغل قلبه لأنه لا يمتلك سيف الحكمة ولا يفك الوثاق الذي يخلفه الجهل وكما قال الشاعر:

إذا ما الجهلَ خيّمَ في بلادٍ رأيتَ أسودها مُسختْ قرودا

فالجاهل لا يدرك نفسه، ويكون ذا شخصية ضعيفة مهزوزة، تتقاذفه الشكوك وتزعزعه العواطف والشهوات، فإذا ما تفاقمت عليه وثقلت قيوده جعلته أسيرًا للأشرار وآلة منفذة للشرور، وتجعله يفقد كل شيء فإذا ما نظر إلى صورته لا يرى ما يثيره، ولا تعني له شيئًا ، ولكن حين يفيق من غفلته بسبب ومضة عارمة من المعرفة الطيبة، سيجدها غاية في القبح، ويتألم ويتمنى لو أنه استطاع أن يقطع وثاقه ويفني جميع العقبات ليلعن الجهل والغفوة التي أدركته وجعلته في طي النسيان، يا لتعاسته أنه جنى على نفسه لأنه ابتعد عن المعرفة، فراقب أيها المندائي النزيه كيف تعلو بيوت النمل بإضافة القليل إلى القليل، فعش واعطِ وساهم في إعمار وطنك الجريح.